

كتاب

٦ على أدهم

تاريخ التاريخ



دار المعارف

مكتابك

٦

على أدهم

تاريخ التاريخ



مقدمة

تاريخ التاريخ من الموضوعات البعيدة الأعراق ، المتعددة الأطراف ، وقد استأثر بجهود طائفة من مبرزى المؤرخين مثل المؤرخ روبرت فلت في كتابه عن « فلسفة التاريخ » والمؤرخ بارنز في كتابه عن « تاريخ الكتابة التاريخية » والمؤرخ شوتول في كتابه « مقدمة لتاريخ التاريخ » وغيرهم من الباحثين ، وهو برغم ذلك لا يزال في حاجة إلى المزيد من البحوث التي تتناول شتى نواحيه ، ومختلف أجزائه وجوانبه ، وكلما تقدمت الكشوف الأثرية ازداد اتساعاً وشمولاً ، وتحقيقاً لأطرافه وتصحيحاً لأحداثه ، وبعد مرماه ، وامتد مداه ، وهو يقتضى دقة نظر ، وجهد ذهن لسد أغواره ، والإحاطة بأبعاده ، وكلما كثر البحث في نطاق المخطوطات والوثائق والآثار والنقوش كشفت مصادر كانت مجهولة وتجلت حقائق لم تكن معروفة .

وقد استهل المفكر الباحثة « ماكس نورداو » كتابه عن تفسير التاريخ بملاحظة الخلط السائد في كل مكان بين التاريخ في ذاته وكتابة التاريخ وتسجيل أحداثه ، وهو يشاهد على الباحثين على « فلسفة التاريخ —

حتى الذين أجادوا البحث فيها وأحسنوا تناولها — أن جهودهم انجهدت إلى جعل الوصف والموصوف شيئاً واحداً ، أى أنهم لم يفرقوا بين التاريخ وكتابة التاريخ ، وعنده أن هذا ينطوى على شيء من الغرور والادعاء الصارخ ، وزعم المؤرخون أن التاريخ وهو ذلك الجزء من قصة الدنيا الذى عرضته التقاليد المتعاقبة ، وسجل فى التاريخ المكتوب يدل على الإسراف فى الثقة بالنفس ، وأن القدماء كانوا أشد فطنة وأكثر حكمة حينما قالوا إنه كان هناك أبطال قبل أجاممنون قد أسدل عليهم الظلام أستاره ، فلم يرق أحد عليهم دمعاً ولم يختصهم إنسان بالتكريم والتمجيد ، ويستشهد بقول السعدي فى جولستان : « كثير من الأبطال يرقدون فى جوف الأرض وقد نسي ذكرهم ولم يسمع لهم صدى لأنهم لم يتغن بأجسادهم شاعر ، ولم يذكر ما قاموا به من أعمال مجيدة وما لهم من مواقف مشرفة . . . والتاريخ له وجوده القائم بذاته ، وهو بطبيعة الحال أوسع نطاقاً وأبعد مدى من التاريخ المكتوب ، لأنه يتناول كل ما حدث سواء الأحداث الهامة البعيدة التأثير أو الأحداث العادية المألوفة . وكل ما فكر فيه الإنسان وهجس فى نفسه وتصوره بخياله ، وليس هناك فرق بجوهري بين الإغشان المغمور والفتاح الذى ملأت شهرته الآفاق ، وفى كليهما الروح الإنسانية ، وكلاهما يخسر عليه أحكام الطبيعة والفوقية فيها ، الكم لا فى النوع ، وكثيراً ما يهمل المؤرخون تأثير الأحداث الطبيعية الخارجية

عن إرادة الإنسان في حين أن تأثيرها في الأفراد والجماعات والأُمم وفي الوجود الإنساني بوجه عام قد لا يقل عن أهمية تأثير النظم الاجتماعية والسياسية والعقائد والمعتقدات الدينية .

وأقدم الوثائق التاريخية كانت كتابات ورسومًا ونقوشًا على المعابد والقصور والمقابر التي أقامها الملوك والغزاة الفاتحون لتسجيل انتصاراتهم والإشادة بأنخبار المعارك التي خاضوا غمارها والبلاد التي استولوا عليها ، وحلقات أنسابهم وما جمعوا من ثروات واقتنوا من مدخرات . . . وقد اختلفت الآراء في تفسير كلمة تاريخ وأصلها ، ويقول المؤرخ السخاوي في كتابه « الإعلان بالتويع لمن ذم التاريخ » التاريخ في اللغة الإعلان بالوقت ، يقال أرخت الكتاب وورخته أي بييت وقت كتابته ، قال الجوهري التاريخ تعريف الوقت ، والتاريخ مثله يقال أرخت وورخيت ، وقيل لشتقاقه من الأرخ يعني يفتح الهمزة وكسرها ، وهو الأنثى من بقر الوحش ، ، لأنه شيء حدث كما يحدث المولد ، انتهى ، وقد فرق الأصمعي بين اللغتين ، فقال بنو تميم يقولون ورخت الكتاب - ثورينا ، وقيس يقول أرخته قاريحاً ، وهذا يؤكد كونه عربياً ، وقيل إنه ليس بعربي محض بل هو معرب مأخوذ من «مارروز» بالفارسية ما من القمر وروز اليوم وكان الليل والتهارن طريقة ، قال أبو منصور الجواليقي في كتابه المعرب من الكلام الأعجمي : « يقال إنه التاريخ بالذي يؤرخه النسخ ليس بعربي

محضر ، وإنما أخذها المسلمون من أهل الكتاب ، وتاريخ المسلمين أربع من سنة الهجرة . كتب في خلافة عمر رضى الله عنه فصار تاريخاً إلى اليوم » وقال أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتاب الخراج ، تاريخ كل شيء آخره ووقته الذى ينتهى إليه زمنه ، ومنه قيل لفلان تاريخ قومه ، إما لكون المنتهى إليه في شرف قومه كما قال المطرزي وذلك بالنظر لإضافة الأمور الجليلة من كرم أو فخر أو نحوها إليه وإما لكونه ذاكرة للأخبار وما شاكلها .

ويقول المؤرخ فراز روزنتال في كتابه « علم التاريخ عند المسلمين » : « إن الأصل التاريخى لكلمة Istoria الإغريقية (وهي ما تقابل كلمة تاريخ في اللغة العربية) ذو أهمية أكبر ، فعندما نشطت الحركة الفكرية والسياسية نشاطاً عظيماً في الدويلات الأيونية في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، كان تعبير Istoria يقصد منه البحث عن الأشياء الجديدة بالمعرفة ، أى لنوع من المعرفة كان يهم كل مواطن دولة المدينة الواحدة ، ألا وهي معرفة البلاد والعادات والمؤسسات السياسية المعاصرة أو الماضية ، وسرعان ما أصبحت كلمة Istoria مقتصرة على معرفة الأحداث التي رافقت نمو هذه الظواهر ، وبذلك ولد تعبير التاريخ بمعناه الشائع ، وقد أخذ الرومان تلك الكلمة بمعناها ومبناها ، وظلت كلمة Historia تعبيراً فنياً لم تتبدل حروفه بانتقاله إلى اللغات الرومانية كما

كان يحدث لو كانت هذه الكلمة دارجة الاستعمال عند العامة .
ولما كانت الإحاطة بهذا الموضوع الحافل بالقضايا والمشكلات تستلزم
بحوثاً مطولة لا يسمح الحيز المحدد لكتب هذه السلسلة فلذلك سأكتفي
بالإشارة إلى بعض معالمه البارزة ، ملتزماً بالإيجاز ومجافاة الإسهاب .

أصول الكتابة التاريخية

طبيعة التاريخ :

كلمة التاريخ فى الاستعمال المألوف مصطلح يشمل معنيين مختلفين ، وفى أغلب الأحيان يقصد به الأعمال والمنجزات التى قام بها الإنسان فيما مضى من الزمان ، وكثيراً ما يستعمل كذلك ليدل على رواية تلك الأعمال والمنجزات وتسجيلها ، وهو بهذا المعنى لا يوجد إلا فى الصورة التى يصور بها ، أى فى الصورة التى أعاد خلقها العقل ، وفى بادئ الأمر كان للأساطير والتخيلات والأوهام أثر ظاهر فى تكوين التاريخ ، ولكن ضرورات الحياة ، ومشكلاتها العامة والخاصة ، استوجبت مراعاة الواقع ، ولو إلى حد ما فى مراقبة الأحداث وتسجيل الوقائع ، وترجع نشأة التاريخ بهذا المعنى إلى قدرة الإنسان على تخيل الماضى والإحساس الفنى الجمالى الذى يلم به حينما يروى أحداث الماضى ويستحضر صورته ، ولم تبدأ كتابة التاريخ بوصف الأحداث ، لأن ذلك كان من وراء قدرة الإنسان فى فجر حضارته ، ولأن الموارد التى تعينه على معالجة الكتابة كانت لا تزال غير ميسورة ، وكان الأدب فى أول ظهوره مقصوراً على

الشعر ، وفي أول ظهور الأدب كان الرجل العبقري يغني ما يريد أن يقوله وينشده ، وقد سبق الشعر النثر ، وكان الشعر الملحمي والشعر الذي يتضمن سير الأبطال هما أول ألوان الأدب وأسبق فنونه إلى الظهور ، وكانت هذه المنظومات تتضمن عناصر تاريخية مشوبة بالأساطير ، وذلك لأن الأساطير والخرافات والأقاصيص كانت أحب إلى الإنسان البدائي من الواقع الحقيقي ، ويبدو لنا أنه من السهل اليسير النظر إلى الوقائع التاريخية كما هي في ذاتها ، ولكن ممارسة الحوادث واستطلاع الأمور ومعاناة التجارب تدل جميعها على أنه ليس أشق على الإنسان من النظر إلى الأحداث والوقائع في ذاتها ، والقدرة على ذلك ليست من المواهب التي تجود بها الطبيعة في يسر وإسماح ، وإنما هي من ثمرات تقدم الثقافة ، وهي لم تتوفر لقوم من الأقاليم إلا بعد أن نضجت عقليتهم ، وقد بلغ الشعر القريب من الإنشاء التاريخي مستوى عالياً بين الأمم المختلفة قبل أن تمارس كتابة التاريخ ، ففي الهند نظمت الرامايانا والمهابهاراتا قبل ظهور الأدب التاريخي ، وعند اليونان ظهر هوميروس قبل ظهور هيرودوت بزمن طويل ، وظهر في إيطاليا دانتي قبل ظهور بوكاچيو ودينى ، ومكيافيللي ، وأظهر شكسبير براعة فائقة في تصور الشخصيات والمواقف قبل أن يظهر عند الإنجليز مؤرخون جيدون كتابة التاريخ ، ولم يستطع العقل في الإقبال على الكتابة التاريخية أن يتخلص من قيود التقاليد وأنغلاق الأساطير

والأوهام والخرافات إلا بعد محاولات استغرقت زمناً ، وسارت في بطاء شديد .

تاريخ كتابة التاريخ :

يقول الأستاذ شوتول Shotwell في كتابه عن تاريخ التاريخ إنه إلى وقت قريب كان ينقص التاريخ المؤرخون ، فقد كتب تاريخ لكل شيء تحت الشمس — للأدب — والفلسفة والفنون والعلوم — حتى السنوات القليلة الأخيرة — إذا استثنينا مؤلفات قليلة زهيدة القيمة — لم تكن قد كتبت قصة التاريخ » ، ويسترسل شوتول قائلاً في دعاة : « وقد شغلت كليو — إلهة التاريخ — بكتابة ماضي الآخرين ، ولم تكن بكتابة تاريخها ، ولم يوجه إليها أحدهم السؤال بمن ماضيها » .

كتابة التاريخ في العهد القديم :

... كتابة التاريخ بالمعنى المعروف اليوم كانت نادرة قليلة التقديم عند سكان الشرق الأوسط الأدنى ، واكتشاف الكتبة ومدى قياس الزمن يجعل من الممكن الاحتفاظ بوثائق في المعابد ، وهي تحوي جوامع تلوينية ، وهو غير متقدم الجسدية في متجزة وفي أبيض بها بين النهرين ، فلما لم يخرج ما يمتحق بالتسمية تاريخاً ، والملاحظات اليسيرة عن دوافع مرات

الفراعنة المصريين والقوائم القليلة الحاوية لأسماء الملوك التي حفظت كان باعثها جميعا الرغبة في إكبار شأن الفرعون الحاكم ، وذكر أحداث حياته ، وفي بابل أخذت الكتابة التاريخية صورة النقوش المرسومة على المباني ، وظهرت عند الآشوريين وثائق حوليات ملكية في تسلسل حولي مغامرات الحكام في الحرب والصيد والقيام ببناء بعض القصور ، ولم يظهر أثر للحاسة الناقدة في هذا التسجيل البدائي للتاريخ ، وكان الهدف المقصود من هذه النقوش تمجيد الملك الحاكم وإعلاء شأنه في نظر الأجيال التالية ، وكانت الحقائق التي تترى به وتشوه ذكره تحذف جميعها ولا يشار إليها ، وتغلب على تلك الوثائق والنقوش المبالغة والتهويل والروح الدينية ونسبة المباني المشيدة للآلهة .

ويرى الأستاذ بارنز Barnes أن الأحوال الجوية جعلت مصر متحفاً تاريخياً حقيقياً ، أو كما قال الأستاذ برستد Breasted « كتاباً تاريخياً ضخماً » وساعدت على حفظ مصادره وأقية قيمته للمعلومات التاريخية في مقابر الملوك والقصور والمعابد والآثار ، ولكن لم ينبثق من الكتابات التاريخية المصرية إلا القليل . ومنها ما كتبه أحد كتاب تحوتمس الثالث ، وقد وُصف فيما كتبه عرواًت هذا الملك الهام - الناهض - العزم وصفاً جيداً ، وحيثما تأثرت الثقافة المصرية القديمة بالثقافة الهلينية ظهر كاتب مصري هيليني الثقافة وجميع حولياتنا عن تاريخ مصر وكتبنا

سرداً تاريخياً كان له شأن على ما يبدو في عصره ، وهذا الكاتب هو مانيتو Manatho وقد عرف هذا الكاتب بإجادة البحث ، وتحري الموضوعية في جمع المادة التاريخية وتفسيرها ، ومن دواعي الأسف أنه لم يبق من كتبه سوى مقتبسات قد شابتها الشوائب في كتاب المؤرخ اليهودي يوسيهوس ، وفيما كتبه المؤرخان المسيحيان القديمان جولياس الأفرقي وإيزيبوس :

وقد تقدم البابليون والأشوريون على قدماء المصريين تقدماً قليلاً في جمع الوثائق التاريخية ، ولكن لم يظهر بينهم مؤرخ من طراز مانيتو حتى تتأثر الحضارة البابلية بالحضارة الهلينية ، فقد ظهر حين ذاك المؤرخ الكاهن بيروسوس Berossos . وكتب تاريخ بابل في القرب الذي كتب فيه نفسه مانيتو .

وأقدم الكتابات التاريخية الآشورية هي الوثائق التي كتبها الكتاب السومريون ، ولكن لم يعثر بعد على سرد تاريخي منظم يمكن أن يعزى إليهم ، وقد جمع البابليون قوائم كثيرة بأسماء الملوك ، والملاحظ بوجه عام أن الوثائق التاريخية الخاصة بقدماء المصريين والبابليين والأشوريين لم تتجاوز أنساب الملوك ، وتسجيل الحملات الحربية ، والأماديح الموجهة إلى العواهل ، والملايسات الاجتماعية التي مهدت لظهور هذا اللون من ألوان التاريخ الملحمي غير الشائق لم تسمع بأزدهار لون آخر من ألوان

التاريخ أرق مستوى وأكثر أفضالة ، وازدهار فن كتابة التاريخ كان يستلزم جواً من الحرية تنمو فيه الملكات . وتتفتح المواهب . ولا يقتصر فيه التاريخ على تسجيل أخبار قلة من الملوك وأعيان الدولة ، وتدوين بعض الأحداث العامة منفصلة عن الأسباب التي مهدت لوقوعها والاكتفاء بالاختصار على أخبار طبقة خاصة قليلة العدد مرهوبة السطوة ، وقد كانت الملوك في نظر أنفسهم وفي نظر رعاياها آلهة تمشي على الأرض .

الصينيون وكتابة التاريخ :

يرى الأستاذ روبرت فلنت أن الصينيين تفوقوا على سائر الأمم الشرقية في الأدب التاريخي ، وهو يعطي ذلك بشدة إحساسهم بحقائق الحياة ، وفراط احترامهم لأسلافهم ، وشدة تعلقهم بالماضي وحسن إدارتهم الشئشي . واعتداهم في إصدار الأحكام ، وبعدهم عن الاسترسال مع الخيال ، وتقديرهم العالي للمعرفة والثقافة وميلهم إلى الجدل في طلب العلم . ولقد كتب الصينيين عدد كبير من المؤرخين ، ومنذ ألفين وستمائة سنة على حمار يبدو كونت لجنة في العاصمة لتسجيل الأحداث التي قد تكون لها أهمية من الناحية القومية . والقول الأدب الصيني حافل ضخم ، وهو يشكل تاريخاً أكثر فصاحة وفضلثة حولية وعند كرات مختلفة للأشواغ وتولجبه وسيراً لا يكاد يحصيها العد ومدونات تاريخية وملاحم التاريخية والفجوة

بالمعلومات ، وهى تناول شتى العصور ومختلف جوانب الحياة ، وهى مكتوبة بأسلوب يرتضيه الذوق الصينى ، ويعد أسلوباً شائعاً ، ولكن الكتابة التاريخية برغم ذلك لم ترتفع عن مستوى الطريقة الحولية ، والمؤرخون الصينيون قد بذلوا جهداً فى جمع المعلومات واستقصاء الوقائع ، وتنسيقها ولكنهم لم يضعوها فى موازين النقد ، ولم يسبروا غورها ، ويستنبطوا دخائلها ، ولم يتابعوا التطور الجوهري لأحداث التاريخ ، فالتاريخ عندهم تعوزه دقة العالم ، وشمول الفلسفة وإحاطتها ، ولم يستطع الصعود إلى وجهة نظر عامة ، وهم يتناولون التاريخ باعتباره فناً قومياً نافعاً ، لا باعتباره مرآة تنعكس فيها الطبيعة البشرية ، وأبعد المؤرخين الصينيين شهرة هما سيزماتيان الذى ولد حوالى سنة ١٤٥ قبل الميلاد وسيرىما كوانج الملقب بأمير المؤرخين ، وقد ذاعت شهرته فى القرن الحادى عشر ، وهذان المؤرخان ينتسبان إلى أسرة واحدة برغم تباعد تاريخ مولدهما ، وقد كتب الأول وثائق تاريخية تشمل كل الملامحة فى التحولات الصينية منذ عهد هوانج فى — أى منذ ٢٦٩٧ قبل الميلاد — إلى العصر الذى عاش فيه ، واستقصى الآخر تاريخ الصين بحلائل ألف وثلاثمائة واثنين وستين سنة ، وقد أضيفت إليه بعد ذلك إضافات أوصفت بالشرف التاريخى إلى القرن الثامن عشر ، وقد ترجم هذا الكتاب فى اللغة الفرنسية .

اليابانيون وكتابة التاريخ :

وقد عنى اليابانيون بكتابة التاريخ مثل الصينيين ، ويرى المؤرخون اليابانيون أن الأسرة الملكية الحاكمة بدأ حكمها منذ القرن السادس قبل الميلاد ، وهي أقدم الأسر المالكة تاريخاً ، ومن المسائل التي لا تزال موضع خلاف ونقاش مسألة نشأة كتابة التاريخ اليابانية ، وهل كانت نتيجة حافز قومي أو كانت أثراً من آثار الاحتكاك بالصين ، ويرى المتخصصون الأوروبيون في الدراسات اليابانية أن كتابة التاريخ الياباني الصحيح لا ترجع إلى أبعد من القرن السادس قبل الميلاد ، وقد جمعت أقدم الوثائق التاريخية اليابانية سنة سبعمائة واثنى عشرة الميلادية في كتاب ، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية ، والحوليات اليابانية المستمدة نيهونجي التي تمت سنة ٧٢٠ ميلادية يبدو فيها طابع التأثير الصيني ، وفي القرنين الثامن والتاسع اشتركت طائفة من الكتاب في كتابة وثائق تاريخية ، وكان أنه هؤلاء الكتاب ذكراً وأبرزهم أثراً المؤرخ سيجووازا ميشيزن ، ومن القرن العاشر الميلادي إلى القرن الثالث عشر حدث تطور ملحوظ في كتابة التاريخ الياباني ، واتسم بإحكام السرد وإجادة التفكير التاريخي ، وفي خلال العهد الإقطاعي ظهرت حوليات كثيرة ، ولكن قلة ظهور المؤرخين الممتازين كما حدث في عهد الإقطاع الأوربي ، وقرب

انتهاء ذلك العهد ظهر مؤلف تاريخي ضخم ذائع الصيت كتبه الأمير ميتو (١٦٢٢ — ١٧٠٠) وعاونه في ذلك عدد من العلماء اليابانيين والعلماء الصينيين ، وقد شمل تاريخ اليابان حتى سنة ١٤١٣ وكان الغرض الذي رمى إليه الأمير بهذا المؤلف هو النيل من مكانة الشوجانات (وكان الشوجان هو القائد الأعلى للجيش الياباني في عهد الإقطاع) واعتبارهم مقتصين للسلطة وإعلاء شأن الميكادو باعتباره المصدر الوحيد للسلطة الشرعية والحكم الصالح ، وقد كتب الكتاب بحذق وبراعة جعلته صالحاً لتحقيق هذا الغرض ، وهو يعد مصدر الحركة التي انتهت بثورة سنة ١٨٦٨ ، وأول مؤرخ ياباني صعد بالتاريخ إلى المرتبة العلمية هو هاكيسيكى (١٦٥٧ — ١٧٢٥) ويعدّه اليابانيون أعظم مؤرخيهم إحياءً ، وأوسعهم إحاطة ، ومن كبار مؤرخي اليابان رابى سانجو (١٧٨٠ — ١٨٣٣) وقد عرف بنفاذ بصيرته ، وسداد مذهبه ، وقدرته الناقدة ، والمقتطفات التي ترجمت من مؤلفاته تدل على أنه كان يجيد تصوير الأحداث وتحسين عرضها ، وظهر في اليابان الحديثة مؤرخون لهم وزنهم مثل موتورى غوزيناغا (١٧٣٠ — ١٨٠١) وهيرانا اسيتانى (١٧٧٤ — ١٨٤٣) ومن مميزات الأدب الياباني كثرة الروايات اللبانية التاريخية ، وكثير منها يرجع تاريخه إلى القرون العاشر والقرن الحادى عشر .

الهند وكتابة التاريخ :

تمتاز الهند بثرائها الأدبي ، فالشعر الهندي والفلسفة الهندية من أسمى طراز وأجل الآثار ، ولكن كثرة امتزاج الشعوب والسلالات في الهند منذ القدم وعدم وجود وحدة سياسية تجمع شملها ، وتزيل أسباب الخلاف والتنافر في العادات والتقاليد واللغة ، لم يساعدا على ظهور الكتابة التاريخية ، ولذلك ليس للهندوس تاريخ قومي مكتوب ، وقد استطاع الهنود أن يعبروا عن أفكارهم وخوارج نفوسهم في الكتب المسماة « فيدا » ، وهي تتضمن وصف الحياة الاجتماعية لطائفة الهنود الآريين وآرائهم في الله والكون والإنسان ، وفي الملاحم العظيمة مثل المهابهاراتا والراماياتا والبورانا ومجموعة الحكم والأمثال المسماة سوترا ، ولكنهم لم يعنوا بتدوين أخبار الحياة الاجتماعية ، والأحداث الخارجية العادية ، ويجد الباحثون صعوبات جمة في استخلاص الحقائق التاريخية من المنظومات الشعرية الهندية ، وأقدم مؤلفات هندية يمكن إلحاقها بالأدب التاريخي لا ترجع إلى أبعد من القرن الحادي عشر الميلادي . وهي مع ذلك لا تخلو من الشوائب ، وأشهرها كتاب « ملوك كاشميرا » وتغلب عليه الروح الشعرية والثرثرة الأسطورية ، والأدب التاريخي الهندي يقرر المادة حين الشأن .

اليهود وكتابة التاريخ :

يقول الأستاذ بارتز في كتابه عن « أصول الكتابة التاريخية » (١) إن شرف إخراج أول سرد تاريخي حق متسع المجال ويحظى بنسبة عالية من الدقة يلزم أن يعزى إلى يهود فلسطين القديمة ، ومعظم هذه الكتابات اليهودية التاريخية قد احتواها الكتاب المقدس ، وفي عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخر أبدى بعض آباء الكنيسة الذين يميلون أكثر من غيرهم إلى التشكك ، شكوكهم في صحة أفكار معينة تقليدية عن تأليف الكتاب المقدس ، ولكن أول دارس أثار مسائل على جانب كبير من الأهمية من ناحية الآراء التقليدية كان عالم العهد الوسيط ابن عزرا الذي تجدى في سنة ١١٥٠ ميلادية فكرة تأليف موسى للأسفار الخمسة ، وفي القرن السابع عشر أبدى الفيلسوف الناقد الشهير توماس هوبز شكه رأيه في تأليف موسى للأسفار على أساس اعتبارات منطقية ومفاهيم الإدراك العام لا على أساس النواصة التاريخية بالنصوص ، وأشار إلى أنه من المألوف والمعتبر أن مؤلفه وهو يكتب سيرته الذاتية إلى موته ، ويؤخر ياله قبل إحسن تدوينه إلى بعد ، أنه لم يستطع أجد لمدة سنوات عدة أن يعترف بموضع مقبرته ، ورغم ذلك فإن الأسفار الخمسة تروى بالتفصيل ما يلزم من التاريخ الذي ألم به اليهود بعد

(١) ص ١٩ من كتاب « أصول الكتابة التاريخية » .

موته ، وقد بدأ العالم اليهودى باروخ أسبنوزا — وكان معاصراً لهوبز. ولكنه أصغر منه سنًا — الدراسة النقدية الحق لأصول سفر التكوين ، وأظهر أن هذا السفر لا يمكن أن يكون كاتبه مؤلفاً واحداً فى أى وقت واحد ، وقدم الدليل الذى ينقض نظرية تأليف موسى للأسفار الخمسة . ويذكر بارنز أن الباحثين المحدثين مثل دليترس وونكلر وروجرز قد أظهروا تأثير الأساطير البابلية والتقاليد الدينية فى الديانة اليهودية ، وبخاصة فى اقتباس قصة الخليفة وبرج بابل والطوفان ، إلى ذلك من العقائد والأساطير البابلية ، كما أشار غيرهم من الباحثين إلى الأسس الفارسية فى اقتباس فكرة الجحيم والشيطان وخلود الروح . ويقول بارنز (١) « كان الرجاء العظيم الرجب الذى استمتع به اليهود والمكانة التى ظفروا بها فى ظل ملوك المملكة المتحدة. فى عهد شاوول وداود. وسليمان من البواعث الحافزة على كتابة التاريخ . وأقدم محاولاتهم للكتابة التاريخية عهدا هى المحاولة التى قام بها كتاب مجهولون بكتابة أصول الأسفار الخمسة. وسفر يشوع. وسفر صموئيل. الأول والثانى. وسفر الملوك. الأول والثانى. ويقول المؤرخ الأبيثاذ بزيستيد « إن هذين الأسفلين هما أقدم ما تملك من الكتابات التاريخية عند أى قوم من الأقوام. وهما مؤلفان مجهولان هما أقدم مؤرخ وجدناه فى العالم القديم » .

(١) ص ٢٢ من كتاب « أصول الكتابة التاريخية » .

ويقول إدوارد مير « مما يثير الدهشة أن يوجد أدب تاريخي من هذا الطراز في ذلك الوقت عند إسرائيل ، وهو يسمو على كل ما نعرفه عند غيرهم من الكتابات التاريخية الشرقية القديمة » ، ويعد من الطوائف التاريخية البارزة « تاريخ داود الذي كتبه باللغة العبرية الكاهن الأعلى أياثار ، وآخر المؤرخين اليهود القدامى البارزين هو فلافيوس يوسيفوس (٣٧ — ١٠٥) ميلاديه وهو مؤرخ اليهود القومي وكتب أكثر ما كتبه بعد فقد اليهود وحدتهم وسقوط دولتهم ، وقد حاول أن يهون الأسى الذي خالج نفوس اليهود بإعادة ذكرى أجدادهم السالفة ، ولذلك عمد إلى المبالغة في الإشادة بماضى اليهود .

ويلاحظ الأستاذ روبرت فلنت أن اليهود كانوا ينظرون إلى الأحداث من وجهة نظر دينية ، وكان الله في رأيهم هو العامل المحرك الأسمى للتاريخ ، وأن إرادته هي محك الحكم التاريخي ، وأن مملكته هي الغاية التي ينتج عنها التطور التاريخي ، ولم يمنعهم ذلك من إجادته تصوير الطبيعة البشرية في أمثلوب يجمع بين البساطة والوضوح والقوة ، وقد عرف اليهود بشدة اعتزازهم بمآضيتهم ولكي يارهم لتاريخهم ، وقاربهم بطبيعة الحال عجلوجيم من عساليج شجرة التاريخ العام ، ولكنهم يرون أن هذا العسلوج أجل شأنًا من الشجرة التي تفرع منها .

كتابة التاريخ عند اليونان والرومان :

الرأى القائل إن أول كتابة تاريخية ذات شأن ظهرت عند اليونانيين كانت فى الأشعار المنسوبة إلى هوميروس له أساس من الواقع . وفى أشعار هوميروس معلومات وافرة عن المجتمع اليونانى والثقافة اليونانية ، ويمكن تكوين صورة واضحة لحضارة عصره من الاطلاع على أشعاره .

ولكن ميلاد الكتابة التاريخية اليونانية على النمط فى كتابة التاريخ كان يستلزم خلفية تاريخية لم يتيسر ظهورها عند اليونان إلا فى القرن السادس قبل الميلاد ، وهذه الخلفية هى ظهور الكتابة النثرية والنظرة الناقدة إلى الأساطير الشائعة ، وبواعث الاهتمام بالبحث عن أصول المجتمع ونشأة النظم والقوانين والعادات والتقاليد .

وفى منتصف القرن السادس قبل الميلاد توفرت هذه المستلزمات للسرد التاريخى فى مدينة ميليتس فى أيونيا بآسيا الصغرى ، وفى مطلع القرن السادس قبل الميلاد كان كادموس الملىتى قد بدأ ممارسة الكتابة النثرية بدلاً من الكتابة الشعرية ، وهو يعد فى طليعة الكتاب النثرين فى الأدب اليونانى ، وفى الوقت نفسه بدأ ظهور الفلسفة الأيونية التى وضعت أصول التفكير الحر وشجعت على النقد . وفى ذلك يقول الأستاذ برى^(١)

(١) (د.د.) ص ٢٣ من كتاب « تاريخ حرية الفكر » .

« كانت أيونيا في آسيا الصغرى مهد التفكير الحر ، وتاريخ العلم الأوربي وتاريخ الفلسفة الأوربية يبدأان في أيونيا . فهناك في القرن السادس قبل الميلاد والقرن الخامس حاول الفلاسفة الأوائل أن يصلوا بطريق العقل إلى أصل العالم وتكوينه ، ولم يستطيعوا بطبيعة الحال أن يحرروا عقولهم تحريراً تاماً من الأفكار التي تلقوها ، ولكنهم بدءوا عملية هدم الآراء المحافظة والمعتقدات الدينية » .

وكان لحركة إنشاء المستعمرات والتبادل التجاري والسفر في الشرق أثرها في تقدم الحضارة اليونانية في أيونيا وبحر إيجه وإنماء الروح الناقدة في اليونان الأيونيين ، وهذه الروح الناقدة كانت هي التي ساعدت على تقدم الفلسفة والأدب والكتابة التاريخية ، واحتكاك الثقافات يشير حب الاستطلاع ، ويحفز إلى التفكير ، وينمي العقل ، ومما له دلالة أن هيكاتيوس أول المؤرخين اليونانيين ، كان رجلاً أسفار ، وجوابة أقطار ، (وقد ولد سنة ٥٥٠ قبل الميلاد)

وحينما استولى الفرس على أيونيا ازداد الاقتراب بين اليونان الأيونيين والثقافات المجاورة لهم ، وأثار ذلك اهتمام اليونان الأيونيين بدراسة مختلف الأقاليم الذين يعيشون في داخل نطاق الإمبراطورية التي أصبحوا جزءاً منها .

فنشوء الكتابة التاريخية الجغرافية كان إذن جزءاً من الحركة الفلسفية التي

بدأت في أيونيا ، ويضاف إلى ذلك عامل شخصي خاص ، كان باعثه الرغبة الشديدة التي استولت على بعض المواطنين البارزين في ذلك العصر ليقدّموا إلى أسرهم سلاسل أنسابهم الوضاحية في نظرهم ، وقد تقرب الشاعر اليوناني هسيود إلى آلهة اليونان بتقديم سلاسل أنسابهم الشريفة ، ورأى كتاب التاريخ أن يقوموا بمثل هذا التمجيد للأسر الحريصة على إثبات عراقه الأصل وشرف النسب .

وشد من أزر عامل الاهتمام بتحري الأنساب الميل إلى العناية بالجغرافيا ودراسة أخلاق الشعوب المختلفة وعاداتها وتقاليدها وسائر أحوالها الاجتماعية والثقافية والتاريخية . ولذلك يغلب في الكتابة التاريخية عند اليونان الوصف الجغرافي والإسهاب في الحديث عن مختلف جوانب الحياة الاجتماعية للأمم التي يرد ذكرها ، وتسرد أخبارها .

وقد مهدت الأحوال المذكورة لظهور المؤرخ هيكاتيوس الميليتي ، وهو من مدينة ميليتس التي نشأ بها النثر اليوناني والفلسفة اليونانية الناقدة ، وتشيّن أهمية تأثيرها عند هيكاتيوس في مسألتين كان لها صدى في البحوث التاريخية التالية ، فهو قد بدأ الكتابة العلمية للتاريخ بتجربة الحقيقة في المعلومات التي أوردتها ، والمسألة الأخرى هي موقفه الناقد من الأساطير المتداولة ، وقد أسهل كتابه بقوله .

« ما أكتبه هنا تقرير وبيان لما أعده حقا ، وذلك لأن الأفاصيصة

اليونانية كثيرة ، وفي رأي أنها تدعو إلى السخرية .
 واتسع نطاق الحركة الفكرية التي حفزت هيكاتيوس على تأليف
 « الأنساب » ، وفي الفترة ما بين ظهور كتاب « الأنساب » وكتاب
 « التاريخ » الذي كتبه هيرودوت جمع كارون اللاميسكوسى وديونيزياس
 الميليتى تاريخ فارس فى خلال منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ،
 وكتب سكايلاكس الكرياندى أول سيرة تاريخية ، وفى الجزء الأخير من
 القرن الخامس كتب أنطيوخس السراقوسى تاريخ اليونان ، ومهد
 هيلانيكاس الليسبوسى السبيل لظهور هيرودوت بكثرة اهتماماته وسعة
 إحاطته ، فلم يقتصر على تناول تاريخ الفرس واليونانيين من وجهة نظر
 اجتماعية رحيمة ، بل كان كذلك فى طليعة المؤرخين اليونانيين الذين قدروا
 الحاجة الماسة إلى إيجاد نظام تقويمى شامل ، وقد حاول هيرودوت بنجاح
 نسبي أن يبدأ ذلك .

وأول مؤلف تاريخى شامل تولى تفصيل العلاقات بين اليونان وآسيا من
 عهد كروشيوش ملك ليديا (٥٦٠ — ٥٤٦) — قبل الميلاد إلى هزيمة
 الفرس سنة ٤٧٨ قبل الميلاد هو كتاب هيرودوت ، وقد أثارت الحروب
 الفارسية اهتمام اليونانيين بحضارات الشرق الأوسط ، ولذلك كان المؤرخ
 الذى يتصدى لوصف الحضارات الشرقية ويقرن ذلك بالحديث عن
 موقف اليونانيين فى رد غارة الفرس ، بثق الثقة كلها بأن ما يكتبه سيلقى

إقبالاً شديداً واهتماماً عظيماً ، وقد اغتنم هيرودوت — الهاليكارناسوسى (٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م) هذه الفرصة ، ولم يكن هيرودوت معنياً بتاريخ الأقاليم المتحضرين فحسب ، بل كان كذلك حريصاً على الوقوف على أخبار الأقاليم المتخلفين وعاداتهم وتقاليدهم ، وهو لذلك لا يعد أباً للتاريخ فحسب ، بل يعد كذلك أباً لعلم التاريخ الطبيعى للأجناس البشرية (الأنثروبولوجى) .

وكان هيرودوت رحالة مطبوعاً على حب الاستطلاع والحرص على التروء من المعرفة ، وكان يسأل ويستفسر ويجمع المعلومات والأخبار بمختلف الوسائل والسبل ، ويحاول أن يتعرف العادات والتقاليد والعقائد والأديان والقوانين والنظم ، ولا يكاد يفلت من اهتمامه الفاحص ونظرته الشاملة شىء ، وبقوة عبقريته استطاع أن يضمن كتابه كل ما رآه بعينه وسمعه بأذنيه ، فى أسلوب جذاب ، وعرض شائق ، مما جعل كتابه من طرائف كتب التاريخ الخالدة ..

والموضوع الرئيس فى كتاب هيرودوت هو الحروب الفارسية وبخاصة القضاء على حملة إكسركسيس ، ولكن المعلومات التى جمعها حول هذا الموضوع رجحت أهميتها وعظمت فوائدها ، وقد أخذ عليه تقصيره فى وصف المعارك البحرية ، وقلة عنايته فى تحقيق تفاصيل المعارك التى دارت بين الفرس واليونان ، ولكن فنى مؤاياء البارزة أن عاطفته القومية لم تغلب

على أحكامه . وأنه أنصف الفرس وأقر لهم بالشجاعة والإقدام . وقد عرّضه ذلك لنقد اليونانيين الشديدي التعصب لقوميتهم .

وكانت الحرب الفارسية اليونانية في رأي هيرودوت تمثل تصادم طرازين من طراز الحضارة . وهما الحضارة الهيلينية والحضارة الشرقية . ولذلك عمد إلى تحليل عناصر هاتين الحضارتين . وقد دعاه ذلك إلى وصف أحوال سكان الجانب الغربي من البحر الأبيض المتوسط والعالم لآسيوي في القرنين السادس والخامس وصفاً شائقاً ممتعاً . تناول فيه الأحوال الاجتماعية والثقافية . ويمتاز وصفه بالتزاهة التامة والتخلص من التعصب الجنسي أو الإقليمي . وقد تهم بأنه كان فريسة لسرعة التصديق والقاء الكلام على عواهنه . ولكن البحوث الأثرية الحديثة أكدت صدق الكثير من أقاصيصه الطلية وأوصافه الإخبارية المعجبة . وكان يفرق دائماً بين ما رآه بنفسه وما يعتقده . وبين ما يرويه من الحكايات السائدة والأخبار المتداولة . وقد وصفه الأستاذ شوتول بأنه « هوميروس للحروب الفارسية » . والواقع أن كتابه إلى حد ما كان ملحمة نثرية .

« وكان هيرودوت شديد الإعجاب بالديمقراطية اليونانية . ومع تقديره لشجاعة الفرس فإنه أظهر إيثاره لانتصار أثينا على أوتقراطية الإمبريالية الفارسية . ويبدو في كتابه تأثيره بفكرة تدخل الآفة في الشؤون الإنسانية ،

سيطرت من بلخين إلى الحين في كتابه صدى اعتقاده بوجود أسباب تسمى على

الطبيعة في الأحداث التاريخية ، ومنها يكن من الأمر فإن مكانته بوصفه مؤرخاً فنناً قدم أروع النماذج للسرد التاريخي المتألق الشائق والحي النابض فوق متناول الشكوك .

ومن معاصري هيرودوت توكوتيدس ، وهو يصغره ببضع سنوات ، ولكن حينما يوازن مؤلفه في التاريخ بما كتبه هيرودوت يبدو وكأنه عاش في عصر مختلف . ويعد توكوتيدس (٤٥٦ - ٣٩٦ ق . م) المؤرخ اليوناني الكبير الثاني بعد هيرودوت ، وقد تناول التاريخ بطريقة مخالفة لطريقة هيرودوت ، وأثر الجدية في البحث على ترصيع كتابه بالقصص المسلية ، والطرائف الممتعة ، وتشدد في استبعاد الأساطير والخرافات التي كان هيرودوت يميل إلى الإكثار منها ويجد متعة في روايتها ، ووضع توكوتيدس بذلك حداً فاصلاً في كتابة التاريخ بين المنهج الملحمي والتأثير بالاعتقاد بما فوق الطبيعة. وبين الكتابة التاريخية التي تقوم على تمحيص الحقائق واستقصاء الأسباب المعقولة للأحداث والعلل الدنيوية ، وأعرض عن الاستطرادات التي كان هيرودوت كثيراً ما يشبع رغبتهم بانتراخ المتناسبات وتصنيده الأسباب لينجرف إليها وينغمس فيها ، وقد اختار لنفسه موضوعاً متحداً للعالم ، وجميع المواد الملائمة لطبيعة موضوعه وللشبيبة الصلة به بحثية .

والموضوع الرئيس الذي اختاره توكوتيدس هو الحرب البليونية

(٤٣١ - ٤٠٤ ق م) ومجالها أقل اتساعاً من المجال الذى اختاره هيرودوت ، وقد أعد توكوتيدس كتابه فى عهد نشوب الحرب ووقوع الصدام مما جعل أوجه شبه بين كتابه وبين ما يكتبه المراسلون الحربيون المثقفون فى العصر الراهن ، ويقول الأستاذ بارنز (١) « إن الصورة الموجزة التى قدم بها فى كتابه ارتقاء بلاد اليونان من حكومات المدن إلى الإمبراطورية الأثينية تين أن توكوتيدس كانت له قدرة نادرة على تصوير الماضى لو أنه وجد ذلك مناسباً ، ولكن كتابه العظيم كان قبل كل شىء تاريخاً معاصراً بعينه لأنه هو نفسه كان قائداً أثينياً وسياسياً » .

وقد أظهر توكوتيدس أن أهمية الكتب التاريخية متوقفة على دقة المعلومات وصحتها بأكثر مما هى متوقفة على العرض الجذاب ، ولم يكن المؤرخ الألمانى الشهير ليبولدفون رانك فى أوائل القرن التاسع عشر أكثر تحمساً لبحرى الحقائق فى كتابة التاريخ من توكوتيدس عند انقضاء القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهو فى تمامك أسلوبه واكتفائه بالتفاصيل الوثيقة الصلة بموضوعه يعده فى طبيعة أولئك البديعين إلى التزام المنهج العلمى فى كتابة التاريخ ، تقوم هذه المنهجية أتب الدقة فى تمحيص المادة التاريخية التى يختارها للمؤرخ . هى عيسطس الكتاب التاريخى الحق . وهو من القائلين بفائدة الكتابة التاريخية ، لأن من رأيه أن المعرفة الوافية الدقيقة لما حدث

١) هيلبا (١) ص ١٠٠ من كتاب تاريخ الكتابة التاريخية

نافعة ، لأنه من المرجح احتمال وقوع أحداث شبيهة لما سبق أن حدث . ولم يكن توكوتيدس يكتفى بنقد المراجع ، وشدة العناية بفحص الوثائق والأصول ، وإنما كان كذلك بارعاً في تنسيق المواد التي يجمعها وتفسيرها ، وحقيقة أنه كان ينظر إلى التاريخ من الناحية السياسية ، ولكنه كان كالسياسي الفيلسوف في ربطه بين المشكلات التاريخية والأسباب السياسية وإمامه بالأسباب المباشرة والأسباب البعيدة ، كما أنه امتاز بقدرته السيكولوجية على تفهم نفسية الأفراد والجماعات ، ويستين ذلك في قدرته على إبراز صور واضحة للشخصيات التي تحدث عنها وتحليله للرأي العام الأثيني في مواقف مختلفة مثل ثورة سنة ٤١١ ق . م ، وهو علاوة على ذلك كله كاتب فنان ، وبرغم استغراقه في مراجعة الوثائق وجمع المعلومات الشفوية وتقليبها على وجوهها فإنه كان يستطيع بعد ذلك أن يجيد عرضها ، ويقول عنه العلامة روبرت فلنت (١) « إن تصويره في صورة الملحد أو اللاديني لا يوجد عليه دليل ، ولكن من الواضح أنه كان قد صمم على ألا يسمح لأي معتقد ديني كان لا يزال متمسكاً به أن يلون رؤيته التاريخية أو يؤثر في أحكامه التاريخية ، وإنما كان يريد أن يكتب تاريخاً صحيحاً حقاً ، ولذلك اختار لدراسته ميداناً واضح الحدود يستطيع أن يكشف نواحيه كشفاً دقيقاً ، ويستطيع فيه أن

(١) ص ٥٢ من كتاب « تاريخ فلسفة التاريخ »

يظفر بالحق وهو واثق » ، وقد نسب إلى بعض الأشخاص أحاديث وخطباً لم تصدر كلها أو جانب كبير منها ممن نسبت إليهم ، ولعل عذره في ذلك أن هذه الأحاديث والخطب كانت في رأيه وسيلة لفهم التاريخ ، وأنها كانت شبيهة وقريبة مما جرت العادة بصدورها منهم ، وليس في أسلوبه عذوبة أسلوب هيرودوت وسلاسته ، ولكنه يمتاز بالقوة والمتانة والبراءة من الحشو والترديد ، وقد عيب عليه أنه لم يقدر أهمية العوامل الجغرافية في المواقف التاريخية وأنه أغفل تأثير القوى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في سير التاريخ .

وآخر المؤرخين اليونانيين هو بوليبيوس (١٩٨ - ١١٧ ق . م) وهو نظير توكوتيدس في تحرى الدقة العلمية ، ولكن أسلوبه ليس واضحاً سلساً أو مركزاً مثل أسلوب هيرودوت أو توكوتيدس ، وكان ذلك من دواعي أن القراء لم يقبلوا على قراءته إقبالهم على قراءة الاثنين الآخرين ، وتاريخه محاولة لتناول امتداد الإمبراطورية الرومانية وتطور نظامها السياسي حتى سنة ١٤٦ ق . م في أربعين جزءاً ، وكان أكثر تأكيداً من توكوتيدس لمسألة أن المؤرخ المؤهل لكتابة التاريخ لابد أن يكون من كبار رجال الأعمال ، ويفضل أن يكون قائداً أو رجلاً دولة

وقد أظهر هيرودوت اهتمام المؤرخين اليونانيين بالشرق ، وعرض توكوتيدس لتاريخ علاقات أثينا الخارجية وهي في أوج حضارتها ، أما

بوليبوس فإنه يعكس صورة اليونان في حالة تخلفهم وتدهور مكانتهم وانتقال الاهتمام إلى السيطرة الرومانية في الغرب .

وهو يوناني الأصل ولكنه قضى معظم حياته في روما ، وقد مكّنه ذلك من أن يكون أقرب إلى التزاهة في كتابة تاريخ الرومان واليونان ، وقد رمى إلى إظهار صعود روما إلى ذروة السيطرة والنفوذ ، وبعد الجزء السادس من كتابه خير تحليل للمثل العليا السياسية الرومانية وأساليب الرومان في الحرب ، وقد رأى أن العبقرية السياسية الرومانية قد تجلت في اتخاذ نظام للحكم يجمع بين النظام الملكي والنظام الأرستقراطي والنظام الديمقراطي ، وهو يرى أن الرومان استطاعوا بهذا المزج بين نظم الحكم الثلاثة أن يتجنبوا الخضوع لتلك الحركة الدائرية ، حركة الانتقال من الحكم الملكي إلى الحكم الاستبدادي والحكم الأرستقراطي الذي يتولى كبره الأعيان والحكم الديمقراطي الذي يسفر عن حكم الغوغاء والدهماء ثم تعيد الدائرة دورتها ، وكان بوليبوس نافذ الرأي في الحكم على السياسات ودارساً متعمقاً للأحداث والشخصيات ، وتصويره لبعض الشخصيات التاريخية المشهورة مثل هانيبال يعد من طرائف فن التصوير التاريخي ، وكان يؤكد قيمة المعرفة الجغرافية في استجلاء حقائق التاريخ وتقلباته ، والتاريخ في نظره من الدراسات النافعة لأنه كما قيل عهد عهده : « فلسفة تعلم بطريق تقديم المثل » ، ومعرفة الحقائق التاريخية

المؤكددة قد تعين في تنظيم إدارة الحكم وتوجيه الأحوال العامة ، وحل المشكلات العارضة ، وتفريج الأزمات المفاجئة ، وقد عني بمسألة السببية في الأحداث التاريخية ، وكان أكثر تعمقاً من توكوتيدس في تحليل الأسباب غير الشخصية المؤثرة في حركات التاريخ ، ولو أن تفسيره كان يغلب عليه الناحية الأخلاقية أكثر من تغليب الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية .

وزينوفون (٤٣٠ - ٣٥٤ ق . م) من مشاهير المؤرخين اليونانيين ، ولكنه ليس من نظراء هيرودوت وتوكوتيدس وبوليبيوس ، وكانت له مواهب أدبية ممتازة ، ولكن قدرته على التحليل التاريخي العميق محدودة ، ويقول عنه الأستاذ برى (١) « إنه لو كان قد عاش في العصر الحديث لكان صحفياً من طراز رفيع ومؤلف كتيبات ، ولكان قد جمع مالاً باعتباره مراسلاً سحرياً ، وكتب حياة بعض الأبطال العاديين من طراز أجيذيليوس » .

وكان يجيد كتابة المذكرات وكتابه عن ايجيزيليوس يعد أحسن التراجم التاريخية في الأدب اليوناني .

ومن المؤرخين اليونانيين الذين تخصصوا في كتابة التراجم فلوطارخس (١٢٥ - ٥٠ م) ، ويجيد بكتابه من أشهر كتب التراجم العالمية ، وإن لم

(١) ص ١٥٨ من كتاب «المؤرخون اليونانيون القدامى» .

يكن في المكانة العالية من ناحية صحة المعلومات التاريخية ، وعلينا أن نذكر أن فلوطارخس كان معنياً بالناحية الأخلاقية ، وأنه كتب تراجمه لتبرير مبادئه الأخلاقية ، لا لتكون تراجم تاريخية قد روعيت فيها الدقة في إيراد الأخبار .

وفي عهد إحياء الثقافة اليونانية في روما ظهر المؤرخ اليوناني أريان (٩٥ - ١٧٥ ميلادية) وهو مؤلف كتاب «حياة الإسكندر المقدوني» والمؤرخ أبيان مؤلف كتاب «تاريخ روما» في العصر نفسه .

الرومان وكتابة التاريخ :

لم يصف الرومان للأدب التاريخي إضافات مبتكرة ، وذهبوا في العناية بالتاريخ مذهب اليونان ، وقد اتخذوا الكتاب اليونانيين أمثلة وقدوة لهم في سائر نواحي الثقافة ومختلف فنون الأدب ، وقد ظهر بين الرومان مؤرخون لهم مكانتهم ، ولكنهم لم يبلغوا مستوى توكوتيدس أو بوليبيوس في تحري الدقة ، وإخضاع المراجع للنقد الصارم والنظر الفاحص ، ولم يستطع مساماة خير المؤرخين اليونانيين أسلوباً سوى المؤرخين الرومانيين ليفيوس وتاسيتوس .
وأول ظاهرة توضح اعتماد الرومانيين المباشر في كتابة التاريخ على المؤرخين اليونانيين - أن الأدب الروماني التاريخي ظل يكتب باللغة

اليونانية حتى القرن الثاني الميلادي ، وكان معظم هذه المؤلفات التاريخية المكتوبة باللغة اليونانية حوليات ، وكان أقدمها وأشهرها حوليات فابيوس بكتور (المولود سنة ٢٥٤ ق . م) وكان أول كتاب أشير فيه إلى أسطورة أصل روما الطروادي - الحوليات التي كتبها الشاعر ايناس (المتوفى سنة ١٦٩ ق . م) وكان أول مؤرخ كبير يبرز من صفوف الرومان هو زعيم الرومانين جميعاً في القدرة والكفاية يوليوس قيصر « ١٠٠ - ٤٤ ق . م » وما كتبه عن الحروب في بلاد الغالة والحرب الداخلية يعد خير ما كتب من المذكرات في العالم القديم ، ويمتاز بنصاعة الأسلوب وقوته وبلاغته ، وهو بالتزامه كبح النفس والترفق والاعتدال في سرد الأحداث وتصوير الواقع يحسن غرض قصته ، ويكشف عن عبقريته المتعددة الجوانب ، وأهمية ما كتبه عن بلاد الغالة لا تقل أهميته في تزويدنا بالمعلومات عما كتبه تاسيتوس في كتابه « جرماتيا » .

ومن أشهر المؤرخين الرومانيين سلوستوس (٨٦ - ٣٤ ميلادية) وكتابه عن تاريخ روما من سنة ٧٨ إلى سنة ٦٧ لم يعثر عليه ، ولكن ما كتبه عن مؤامرة كاتلين وعن البطل الإفريقي يوجورتا يدل على براعة أسلوبه ، وقدرته الفائقة على تصوير الشخصيات .

ومن أشهر المؤرخين الرومانيين العظم هو تيتوس ليفيوس (٥٩ ق . م - ١٧ ميلادية) وهو يعد من أعظم رواة الأقاصيص في الأدب العالمي ،

وكتابه ملحمة نثرية رائعة ضخمة عن نمو الدولة الرومانية وبسط سلطانها على أنحاء العالم القديم ، وكان يقدر قيمة الدقة في تمحيص الوقائع التاريخية ، ولكن الحرص على التألق في الأسلوب وتجميل العرض كانا أكثر استيلاء على نفسه ، وكان يتزع في كتابته إلى تمجيد روما ، والإشادة بها ، ويطرئ الكبرياء القومية ، ليثير في نفوس الشبان الرومانين الشعور القومي ، والحماسة الوطنية ، وكان تدينه لا يكاد يقل عن وطنيته ، ولذلك أعاد في كتابته التاريخية تدخل ما فوق الطبيعة في الأحداث العارمة وأكثر من إظهار أثر الآلهة في سير التاريخ ، وكان قليل العناية في مراجعته للأصول التي يستمد منها ، ويعتمد عليها بتنقيتها من شوائب الخرافات ، وبقايا التقاليد العالقة ، وما كتبه بوجه خاص عن نشأة روما لا يمكن الاعتماد عليه ، والأخذ به ، فقد ملأه بالأساطير وأحاجيب القصص والخرافات والفرق كبير بين كتابته للتاريخ والمنهج العلمى الذى آثره مؤرخ مثل يوليوس .

ويرى الأستاذ بارنز أن ليفيوس لم يكن شخصياً شديداً الإيمان بالخرافات والأساطير كما يبدو ، وكان يعرف أن مصادر التاريخ الرومانى القديمة غير جديرة بالثقة بها والاعتماد عليها ، ولكنه برغم ذلك كان يتقبل ما ترويه من الأخبار لأنه كان يرى أنها كانت بلا شك تستحق التقدير من الناحية العلمية فإنها صالحة ونافعة من الناحية الأدبية وناحية

الدعاية القومية ، وكان هذا هو ما يقصده بكتابته التاريخية .

وكان آخر المؤرخين الرومانين الكبار بوبليوس كورتيليوس تاسيتوس (٥٥ - ١٢٠ ميلادية) وكان مثل توكوتيدس وبوليبيوس من رجال الأعمال ، وقد عرف بمتانة أسلوبه وبلاغته وإشراق ديباجته ، وقدرته الفائقة في تصوير الشخصيات ، وكانت تغلب عليه مراعاة الدقة في تحرى ما يروى من الأحداث ، ولكن تغلب على كتابته الدعاية الأخلاقية ، والاكتفاء في تعليل الأحداث بالأسباب الأخلاقية .

وأشهر كتبه التاريخية هي الحوليات التي تناول فيها تاريخ الفترة منذ وفاة القيصر أغسطس إلى سنة ٦٩ ميلادية ، وكتاب التواريخ ويبدأ من الأزمة السياسية التي حدثت سنة ٦٩ ميلادية ويشمل عهد الأباطرة الفلأفيين ، وهو في كتابته للتاريخ أقرب إلى التزعة العلمية من ليفيوس وأكثر منه عناية بتحقيق الأحداث ، ولكن لم يكن له نزاهة بوليبيوس في الحكم على الحوادث ، وقد أغراه بذلك تحامله على الإمبراطورية وميله إلى طريقة العرض الدرامي ، وكان يميل إلى النظم الجمهورية القديمة ، مع علمه بأن ضعف الجمهورية كان أقوى أسباب القضاء عليها ، وهو في تصويره للشخصيات وتجليه للمؤامرات السياسية في طليعة قدامى المؤرخين ، وتصويره لشخصية تيبيريوس لا نظير له في الكتابات التاريخية القديمة .

وسيتونيوس ترانكويلوس هو آخر المشاهير من المؤرخين الرومانين (٧٥ - ١٦٠ ميلادية) وكان متصلاً بالإمبراطور هادريان ، وقد عمل سكرتيراً له حيناً من الزمن ، وكتابه المعروف هو «حياة القياصرة الاثني عشر» وهو وإن كان مرجعاً يمكن الاعتماد عليه في وصف الحياة العامة - من أقدم الأمثلة للكتابة التاريخية التي يقصد بها كشف العيوب الأخلاقية ، والنقائص الخفية ، وهو حافل بالأقاصيص التي تدور حول حياة الأباطرة الرومانين من عهد أغسطس إلى عهد الأباطرة الفلافيين ، وهو لا يخلو من معلومات طريفة عن الأباطرة الذين تناول ذكرهم في أسلوب سهل واضح لا يعتمد على الأساليب البلاغية التي كانت شائعة في عصره ، وإنما يترك الحقائق تتحدث عن نفسها ، ويرجع جانب من قيمة الكتاب في كتابة التراجم التاريخية إلى أنه صار مثلاً يحتذى في كتابة التراجم التاريخية خلال عصر التزعة الإنسانية .

ولم يكن للمؤرخين الرومانين بوجه عام أصالة المؤرخين اليونانيين ، وقد عالجوا الكتابة التاريخية متأثرين بطريقة المؤرخين اليونانيين في كتابة التاريخ ومتخذينهم قدوة ومثلاً ، ومهما يكن في كتابة المؤرخين الرومانين من عيوب ونواحي قصور فإن كتابتهم التاريخية أصبحت منهجاً وأجدر بالثقة وأقل تأثراً بالأساطير والتعصب العقيدى من الكتابات التاريخية التي

ظهرت خلال العهد الوسيط ، والتي أعادت مستوى الكتابة التاريخية إلى ما قبل عهد هيكاتيوس الملىق .

الكتابة التاريخية فى أوائل العهد المسيحى :

كان لانتصار الديانة المسيحية على الوثنية تأثير بعيد المدى فى كتابة التاريخ وفى الأفكار التى كان يسترشد بها المؤرخون ، فقد نبذت الثقافة الوثنية باعتبارها من عمل الشيطان ، واعتبرت الكتابات التاريخية التى أنتجها العصر الوثنى أنزل مستوى من الكتابات التاريخية المقدسة التى فى التوراة ، وحامت الشكوك حول قيمة التفكير العقلى الذى كانت له المكانة العليا عند اليونانيين ، وأصبح للإيمان الدينى المحل الأعلى والركن الأقوى ، وصار الاعتقاد بما فوق الطبيعة محك الفضائل ، ونبذت منجزات الفنانين والفلاسفة والشعراء والساسة والحكماء ، وأخذت كتب اليهود المقدسة مكانة الأدب القديم ، وأعرض عن شعر هومر ومؤلفات توكوتيدس وبوليبيوس وليفيوس وغيرهم من مؤرخى العصر الوثنى ، وكتابه وشعرائه ، وقد أضر ذلك بكتابة التاريخ وعاق تقدمها ، ولكن برغم ذلك فإنه كان من غير الممكن التغلب على تأثير الثقافة الوثنية ، وكثير من رجال الدين الأوائل كانوا يستعملون اللغة الوثنية ، وقد تلقوا ثقافة وثنية قبل دخولهم فى الديانة الجديدة ، ولذلك تأثرت مثلهم

العليا السياسية وممارساتهم للشئون العملية بالعناصر الوثنية ، وكان أخذهم بفكرة تفوق العواطف والحدس على التفكير العقلي وشدة التمسك بهذا الاتجاه في المسائل الدينية والقضايا العقيدية مصدره الأفلاطونية الجديدة ، فقد أسبغت على التفكير الديني هالة فلسفية فاخرة ، وقد كان لها تأثير واضح في تفكير القديس أغسطين ، وكان هذا الاتجاه يمنع الوقوف موقف الشك أمام مصادر المعرفة التاريخية ، ويعوق توجيه النقد إليها ، وتسليط الضوء عليها .

وذهب المؤرخون المسيحيون الأوائل إلى أن الحركة التاريخية جزء من الحركة الكونية التي يشترك فيها الله والإنسان ، وقد تجلى التعبير عن هذا الاعتقاد في أوضح صورته في كتاب «مدينة الله» الذي كتبه القديس أغسطين ، وكانت الفلسفة التاريخية التي ضمنها هذا الكتاب مستمدة من أصول فارسية وهيلينية وعبرية ، فالحركة التاريخية صراع بين قوى الخير وقوى الشر ، وهي في معناها التاريخي الأرضي صراع بين «مدينة الله» وهي نخبة المؤمنين بإله اليهود والمسيحيين و «مدينة الشيطان» وهو الإلهم الذي أطلق على أشياع الوثنية المعاصرين والسائقين ، وسيصفى هذا الصراع عن انتصار المدينة الأولى وهدم المدينة الأخرى . ولم يتبع المؤرخون المسيحيون طرائق توكوتيدس وبوليبيوس في التحقيق والتثبت ، لأن اتخاذ الموقف الناقد لما ورد في التوراتية وسلوك مسالك

هيكتيوس بإزاء الأساطير اليونانية كان يعد خروجاً على العقيدة ، ولذلك كانت الكتب الدينية تفسر تفسيرات تتضمن الإشارة إلى المعاني الخفية التي تشتمل عليها تلك الكتب الملهمة ، وكان هذا الاتجاه بديلاً من التحليل النقدي السابق اتباعه في المنهج التاريخي ، واتبعت هذه الطريقة في تفسير الوثائق التاريخية ، وقسم التاريخ قسمين هما : تاريخ ديني مقدس وتاريخ دنيوي ، وتتبع في تفسير التاريخ المقدس طريقة التفسير الرمزي لما يصعب تصديقه أو يتعذر فهمه ، ولا يعزى أسباب تأخر التفكير التاريخي إلى تمكن السيطرة الدينية فحسب ، فإن عصر الإمبراطورية الرومانية المتأخر كان عصر تخلف فكري عام ، وقد كان لهذا التخلف تأثيره في الكتاب الوثنيين والكتاب المسيحيين على السواء ، ومن أشهر الكتب التاريخية التي ظهرت في هذه الفترة كتاب إيزيبوس بامفيلوس أسقف قيصرية (٢٦٠ - ٣٤٠ ميلادية) المسمى بالحوليات ، وقد كتبه ليكون مقدمة للكتابة عن تاريخ الكنيسة ، وكتابه يدل على مما بذل من جهد في جمع المعلومات وعلى سعة معرفته وميله إلى سرعة التصديق وتجنب المناقشة الناقدة ، وقد كتبه باللغة اليونانية وكان لا يستطيع قراءتها في ذلك العصر سوى عدد من العلماء في الإمبراطورية الشرقية ، ولذلك كانت هناك حاجة ماسة إلى نقله إلى اللغة اللاتينية ، وقام بذلك العالم الأب جيروم سنة ٣٧٩ ميلادية ، ولم يكتف رجال

الدين بكتابة الحوليات ، وكانت هناك حاجة ماسة إلى كتابة تاريخ عالمي يرد عن المسيحية بعض التهم التي رماها بها أعداؤها الوثنيون ، وأخصها اتهام المسيحية بأنها المسئولة عن النكبات التي حلت بالدولة الرومانية ، وقد قام بتنفيذ هذه التهمة بولوس أروزيوس (٣٨٠ - ٤٢٠ ميلادية) وقد جمع مواد كتابه بين سنة ٤١٥ وسنة ٤١٨ ميلادية واسم كتابه « كتب التاريخ السبعة ضد الوثنيين » وكان أروزيوس من أتباع القديس أغسطين ومساعديه ، ويؤخذ على مؤرخي هذه الفترة تقصيرهم في تحليل القوى العميقة والدوافع العتيدة التي كانت تعمل في تلك الحركة الدينية التي كانوا يتولون وصفها ، ويتبعون تاريخها ، وكان أهم أسباب ذلك فرط عنايتهم بتدوين أخبار الخوارق والمعجزات والقديسين والشهداء ، ومن أهم التراجم الذاتية التي ظهرت في ذلك العصر اعترافات القديس أغسطين .

الكتابة التاريخية في العهد الوسيط :

كان ممثلو الكتابة التاريخية في العهد الوسيط من رجال الدين ، ولذلك كان يغلب على كتابة التاريخ وجهة النظر الدينية ، وكان الكثيرون من كتاب التاريخ في ذلك العهد ينتقصون سعة الاطلاع الكلاسيكي أو اللاهوتي التي كانت طابع المؤرخين في العهد المسيحي المتقدم ، وكان

هؤلاء المؤرخون أميل إلى سرعة الاعتقاد والتصديق منهم إلى التحرى والتدقيق فى قبول الأخبار ورواية الأحداث ، ولم يكن هناك تفريق بين الواقعى والمثالى أو الحق التاريخى والحق الشعرى ، وكانت الملاحم الشعرية تعد مراجع تاريخية ، ولم يكن هناك ما يحول دون تزييف الأخبار ، وتزوير الوثائق والأسانيد ، ولم تكن هناك عناية بكشف الحقائق وإزهاق الأباطيل مادامت الوثائق والأخبار المزيفة تخدم قضية من قضايا العصر ، وتؤيد معتقداً من المعتقدات الشائعة ، والواقع أن ملابسات الأحوال السائدة فى العصر الوسيط كانت تساعد على ذلك ، فقد عمت الفوضى ، ونحيم الظلام بعد سقوط الحضارة الرومانية ، وخدمت الحركة الفكرية ، وساد الجهل والتخلف ، وفقد الكثير من الكتب المدرسية الهامة ، وكان التعصب الدينى الضيق من دواعى سلب بعض المكتبات وإحراق ما بها من مؤلفات قيمة ، ومن قبيل ذلك حرق مكتبة الإسكندرية الشهيرة ، وكان السّفْرَجَم التكاليف وغير مأمون العاقبة ، ولذلك صارت الثقافات محلية ضحلة ، وكان الرهبان هم طبقة العلماء فى العصر الوسيط فى أوربا ، وكان المؤرخون الذين يظهرون بطبيعة الحال من صفوفهم ، وقد بذلوا جهداً فى كتابة التاريخ ، ولكن التعصب الدينى وشدة التعليق بالأوهام والخرافات ومراعاة المصالح الكنسية المختلفة كانت تقبّد عليهم أمرهم ، وكانت المطامع الشخصية والولاء لبعض الجماعات

والرغبة في مساندة بعض المذاهب تقف حجر عثرة في سبيل تحرير التاريخ وتقدمه ، وكان حرص بعض المؤرخين على الولاء لبعض الأسر والأمراء أصحاب السيطرة والنفوذ يجعلهم أكثر اهتماماً باسترضاء السادة حماة والذين يتفيثون ظل رعايتهم منهم بالحرص على الحق التاريخي ، والمؤرخون في العهد الحديث يكتبون للرأي العام ، ولكن في العصر الوسيط كانت معظم الكتابة التاريخية للإشادة بتاريخ أنصار الأدب وحماة من الأمراء والأعيان ، أولنصرة جماعة من الجماعات ، أو تأييد مذهب من المذاهب الراجحة .

الكتابة التاريخية في العهد الإسلامي

كان للعرب عند ظهور الإسلام نصيبهم من الأخبار التاريخية التي تختلط فيها الحقائق والأساطير اختلاطاً يجعل التمييز بينهما من الأمور الشاقة لعدم وجود مدونات يرجع إليها عند المقابلة والتحقيق ، والموازنة والتحقيق . وكان أكثر هذه الأخبار يدور حول ما يسمى « أيام العرب » وحروبهم قبل الإسلام ، وأنسابهم ، وأخبار بعض القبائل البائدة ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس ، وشذرات مما يسمعون من أخبار التوراة والتلمود ، ولم يكن العرب في الجاهلية أمة بدائية كما قد يتبادر إلى الذهن ، فقد كان العصر الجاهلي فترة طويلة الأمد بين حضارات العرب

القديمة في اليمن وبتراء وتدمر والحيرة وبين الحضارة الإسلامية ، ولم تكن الكتابة في العصر الجاهلي واسعة الانتشار ، ولكنها مع ذلك لم تكن مجهولة الجهل كله ، بل كانت شائعة الاستعمال في كتابة العهود والمواثيق والصكوك والرسائل . ولكن العقلية الجاهلية كانت أقدر على قرض الشعر منها على معالجة كتابة التاريخ ، كانت عقلية شديدة التعصب للقبلية نزاعة إلى الأسطورة والخرافة ، قليلة الصبر على المراجعة والتحقيق ، متشعبة بروح عصرها وتقاليده ، معترزة بعروبيتها محتقرة لغيرها من الأمم ، ومثل هذه الحالة لا تعوق قرض الشعر ، بل قد تكون من بواعث التشجيع على نظمه ، لأن فيها ما يحفز الخيال ويثير العاطفة ، ولكنها عقبة في طريق النضج الذي تستلزمه الكتابة التاريخية .

وفي أوائل عهد الإسلام شغل المسلمون بالفتوح والحروب والغزوات حتى توطدت مكانة الإسلام ، ورسست قواعده ، وعلت مكانته ، واستوثق أمره ، ولما هذأت فورة الفتوح ، وحدث نوع نسبي من الاستقرار بدأ المسلمون يتجهون إلى إثبات الأخبار ، وتسجيل الأحداث ، وأقبلوا على جمع الأحاديث النبوية وتفسير القرآن .

وقد نشأ التاريخ الإسلامي نشوءاً طبيعياً استجابة لحاجة المجتمع الإسلامي ، ويبدو أن مؤرخي العرب لم يعرفوا كتب التاريخ اليونانية أو الرومانية لأن شيئاً منها لم ينقل إلى اللغة العربية ، ولذا نشأت كتابة

التاريخ الإسلامى على غير مثال سابق وكشفت عن خصائص امتازت بها الأمة الإسلامية . وأغلب مؤرخى الإسلام لم يكونوا من المؤرخين الرسميين الذين تكلفهم الدولة الرجوع إلى الوثائق ، وجمع الأسانيد ، وكتابة التاريخ . وإنما كانوا يتقدمون بمؤلفاتهم التاريخية إلى المجتمع الإسلامى برمته . ولا يعيشون فى كنف الأمراء ، ولا يعتمدون على معونة الدولة . ولم تخل كتابتهم بطبيعة الحال من التأثير ببيئتهم ، ونزعتهم المذهبية وعقيدتهم السياسية . ولكن حظهم من النزاهة كان موفواً إلى حد كبير . فهم لم يكتبوا التاريخ فى الأعم الأغلب إرضاء للخلفاء والأمراء ، وإنما كتبوه بدافع من ميلهم إلى البحث التاريخى وخدمة المجتمع الإسلامى بوجه عام .

وفى أول الأمر كان التاريخ ممتزجا برواية الحديث وتفسير القرآن ، وذلك لأن المسلمين لما اشتغلوا بجمع القرآن وتفسيره واستقصاء الأحاديث النبوية احتاجوا إلى تحقيق المناسبات التى نزلت فيها الآيات والمشاهد التى وردت فيها الأحاديث ولذا عمدوا إلى جمع أخبار السيرة النبوية قبل كل شئ . وقد حوى القرآن الشرائع والأحكام والأخبار ، وكان هم المسلمين تلاوته وتفهم أحكامه وإشاراته لأنه وضع أسس الحياة والدين ، وفيه الأحكام التى تحدد السلطة وتشد أزر الخلافة ، وتؤكد أشكال عملهم فهم بعض أحكامه وتفسير جانب من معانيه . فعمدوا إلى الجمع بين الأحاديث

ليستعينوا بها على توضيح المشكل وجلاء الغامض ، وصار همهم جمع الأحاديث ممن سمعوها أو رواها أحد سامعيها بالإسناد المسلسل ، وقد وجدوا تبايناً ولوناً من ألوان التناقض في الروايات ، فبدلوا جهداً في التفريق بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث الزائفة المدسوسة ، وقد جرهم ذلك إلى درس طبقات المحدثين والأحوال التي تناولوا فيها الأحاديث .

وفي القرآن إشارات إلى الأمم الخالية ، والقبائل ، والأنبياء السابقين ، ولذلك حرص المسلمون على فهم هذه الإشارات وتوضيح مدلولها ، وكان الإسلام قد أظل الكثيرين من اليهود والنصارى فاستعان بهم المسلمون على توضيح هذه الإشارات ، وحدثهم هؤلاء عن أصول هذه الإشارات في الثوراة والتلمود ، فضم المسلمون هذه الأخبار إلى التفسير والتاريخ ، وقد اشتهرت باسم الإسرائيليات ، وكان في طبيعة من لهم أثر في ذلك كتب الأخبار المتوفى سنة ٣٤٤ هجرية ووهب بن منبه المتوفى سنة ٤٢٠ هجرية .

مع سوغت العوازل التي ساعدت على تنشيط كتابة التاريخ النظام المالي في الحكومة الإسلامية المبكرة ، لأن الخراج الذي كانت تؤديه البلاد التي فتحها المسلمون كان يختلف على حسب فتحها صلحا أو عنوة أو بعهد ، وتبع الأحداث السياسية والاجتماعية التي حدثت في أثناء الفتح . ولذلك

كان الأمر يقتضى بحث تاريخ الفتح ومعرفة ملابساته ، وكان نظام العطاء كذلك يستلزم معرفة الأنساب والسوابق فى الدفاع عن الإسلام ونشر دعوته .

وقد أثارت هذه العوامل مجتمعة الوعى التاريخى عند المسلمين ، وأدت إلى تكاثر الكتابات التاريخية ، وبدأ تدوين بعض هذه الأخبار المتناثرة الدائرة على أفواه الرواة فى رسائل موجزة ، وفى نطاق جد محدود فى عهد معاوية ، ولا يعرف على وجه التحقيق مؤلف أول كتاب أوكتيب فى التاريخ الإسلامى ، ويتنازع فضل الأسبقية فى هذا المجال أربعة رجال وهم : زياد بن أبيه ، فقد نسبوا إليه كتابا ألفه فى مثالب العرب ، وإذا صحت نسبة هذا الكتاب إليه فأغلب الظن أنه ألفه بعد مسألة استلحاق معاوية إياه فى النسب ، فقد أثار هذا الاستلحاق ضجة فى العالم الإسلامى ، ولم يخف بعض الشعراء سخريتهم بمهزلته ، ومن المحتمل أن يبعث ذلك زيادا على تأليف هذا الكتاب ليكون سلاحا يرد به التهجم على نسبه ، ومهما يكن من الأمر فإن هذا الكتاب من الكتب المفقودة ، وقد توفى زياد سنة ٥٣ هجرية .

ويعزى إلى دغفل النسابة تأليف كتاب « التظافر والتناصر » وهو كتاب أسرار شائقة وأحاديث طلية ، ويحوم الشك حول حقيقة تأليف هذا الكتاب ، وإذا صح وجوده فهو من قبيل كتب الأسرار والنوادر وليس من

كتب التاريخ الخالص والأخبار الموثوق بصحتها .

ونسب بعض الرواة مدونات إلى عبد الله بن عباس ، ولا يذكرون أنه أطلق عليها اسماً خاصاً ، والأرجح أنها كانت تتضمن بعض ما كان يقوله في مجالسه التي كان يفسر فيها القرآن .

ورابع هؤلاء الرجال عبيد الله بن شربة المتوفى سنة ٧٠ هجرية ، وقد اتخذها معاوية سميراً ومحدثاً يروي له طرائف الأخبار وغرائب الأحاديث والسير ، وقد دونت أحاديثه في كتاب عنوانه «كتاب الملوك وأخبار الماضين» وكتابه أقرب إلى كتب المسامرات منه إلى كتب التاريخ ، وأمر هذا الكتاب لا يخلو من الشك ، بل قد تناول الشك وجود مؤلفه نفسه .

وواضح أن هذه الكتب التي تسبق الأولية في كتابة التاريخ تغلب عليها صفة كتب السمر والأحاديث والنوادر ، وقد ظهرت بعدها كتب السير والمغازي وهي أقرب إلى كتب التاريخ الصحيح من الكتب السابقة ، لأنها كانت تعتمد على الأحاديث المروية عن النبي ﷺ ، والتي يتحرى في جمعها الصحة وتلتزم الدقة ، وكان لذلك فضل كبير في رفع مستوى الكتابة التاريخية والانتباه بها إلى الطريق السوي ، وقد كان لهذا الاتصال بين رواية الأحاديث وكتابة التاريخ تأثير بالغ في الطريقة التي سار عليها مؤرخو الإسلام في كتابة التاريخ .

والمعروف أن أول من قام بالتأليف في المغازي هو إبان بن عثمان بن عفان الذي توفي سنة ١٠٥ هـ أو قبلها ، وكان إبان من علماء الحديث والفقهاء . وقد اشترك في خروج عائشة وطلحة والزبير للطلب بثأر عثمان وشهد واقعة الجمل .

والمرجع الذي يعتمد عليه القائلون بأن إبان هو أول من ألف في المغازي هو رواية ابن سعد صاحب الطبقات في حديثه عن المغيرة ابن عبد الرحمن ، والظاهر أن هذه المغازي التي رواها المغيرة عن إبان لم تكن كتاباً بالمعنى الدقيق للكلمة وإنما كانت مجموعة من الأخبار حول حياة النبي .

ومن عاصروا إبان وألفوا في التاريخ عروة بن الزبير وكان يعد أجود الفقهاء السبعة بالمدينة وقد مكنته إقامته في المدينة من الإلمام بكثير من الأخبار .

ومن أشهر من عرف بكثرة المعلومات التاريخية وكان من السابقين إلى رواية أخبار السيرة والمغازي وهب بن منبه المتوفى سنة ١١١ هـ هجرية وكانت له معرفة واسعة بأحوال الأوائل وأخبار الأنبياء ، وقد ولد بليمن ونشأ بها وولى بها القضاء ويقول عنه ياقوت الحموي (١) : إنه كان من خيار التابعين ثقة وصدوقاً ، وكان فيما يقال كثره النقل من الكتب القديمة

(١) معجم الأدباء جزء ١٩ ص ٢٥٩ .

المعروفة بالإسرائيليات وينسب إليه كتاب اسمه « الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم » وقد عرف وهب ما تحويه كتب المسيحيين واليهود المقدسة عن طريق صلاته باليمنيين من أهل الكتاب . وكانوا كثيرين باليمن . وهو من الثقات الذين يعول عليهم في قصص الأنبياء خاصة . وطريقته أقرب إلى القصص التاريخي منها إلى التاريخ الخالص .

واشتهر محمد بن مسلم الزهري بسعة العلم ومعرفة الأنساب ، وساعده حبه لجمع الأخبار ذاكرة قوية ، وكان معنياً بكتابة ما يسمع على غير ما كان مألوفاً بين معاصريه ، وقد ألف إلى جانب المواد التي دونها لإستعماله الخاص كتاباً عن القبائل العربية بأمر من خالد القسري وإلى العراق ، ولكنه لم يتمه ، وقد كتب في السيرة كذلك . وتوفي سنة ١٢٤ هجرية .

وأكثر ما كتبه المؤرخون المتقدمون قد فقد وضاع . أو لحقه التحريف وأضيف إليه ما لم يكن به ، ولم يصل إلينا منها كاملاً سوى سيرة عبد الملك بن هشام المعروفة بسيرة ابن هشام ، وهي مختصرة من سيرة ابن إسحاق ، المتوفى سنة ١٥١ هجرية ، وقد يز ابن إسحاق جميع المؤرخين المتقدمين . وأناف عليهم بجزارة معلوماته . وسعة إحاطته . وقدرته على تنسيق الأخبار التي تجمعتها . وبراعته في عرضها . وكان من أسباب غزارة معلوماته اتصاله بكبار علماء عصره مثل عاصم بن عمر وعبد الله بن

أبى بكراً والزهرى . وهو لم يكتف بذلك ، بل حاول أن يحصل على الأخبار من شتى المصادر . وقصد مصر ، وزار الإسكندرية وسمع من يزيد بن أبى حبيب وعاد إلى المدينة . ورحل منها إلى الكوفة . وقد اتصل بالخليفة المنصور . وتقول الرواية إن المنصور قال له « اذهب فصنف كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا » ولما صنف ابن إسحاق كتابه قال له المنصور « لقد طولت يا ابن إسحاق . اذهب فاختصره » .

وحفظ المنصور الكتاب الكبير فى خزائنه .

ومهما يكن نصيب هذه الرواية من الصحة فإن ابن إسحاق وضع كتابه على أساس الأحاديث التى جمعها وهو فى المدينة والآراء مختلفة فى علمه والثقة به . وبرغم اختلاف الآراء فى تقدير الأخبار التى جمعها ابن إسحاق فإن لكتابيه مكانة كبيرة من الناحيتين التاريخية والأدبية لقدم عهده وغزارة مادته .

ومن أشهر نقلة الأخبار أبو مخنف وعوانة بن الحارث وقد روى عنه الأصمعى والهيثم بن عدى وكثير من أعيان العلماء .

ومن أوسع مؤلفى القرن الثانى الهجرى علماً وأكثرهم مؤلفات فى التاريخ والسيرة على بن محمد المدائنى وقد ولد سنة ١٣٥ هجرية وتوفى سنة ٢٢٥ وقد ذكر ياقوت من مؤلفات المدائنى عبطاً كبيراً لمن يكتب تكملة

تكون أقرب إلى فصول قائمة بذاتها منها إلى أن تكون كتباً شاملة مبنية . منها كتاب عن أمهات النبي وآخر عن صفته وكتاب عن أخبار المنافقين وكتاب عن عهود النبي ، ومنها كتاب عن أخبار قريش ومجموعة أخرى من الكتب في أخبار الخلفاء ، وكتب أخرى في الأحداث منها كتاب الردة وكتاب الجمل وسلسلة أخرى من الكتب عن الفتوح . منها كتاب فتوح الشام وكتاب فتوح العراق ، ومنها كتب في أخبار العرب وكتب أخرى في أخبار الشعراء ، وواضح أن جهده الأدبي كان ضخماً ، وقد انتفع مما كتبه المدائني المؤلفون الذين جاءوا بعده فأكثرُوا من النقل عنه :

والمؤرخ الذي حاز شهرة واسعة في القرن الثاني الهجري هو الواقدي واسمه محمد بن عمر ، وكان عالماً بالحديث والمغازي والفتوح ، ومؤلفاته كثيرة منها كتاب المغازي وكتاب أخبار مكة وكتاب السيرة وكتاب فتوح الشام ، وقد ولد سنة ١٣٠ هجرية وتوفي سنة ٢٠٧ .

وكثير من المؤلفات التي جمعها هؤلاء المؤرخون الإخباريون المتقدمون محفوظة في مؤلفات المؤرخين الذين جاءوا بعدهم ، فقد فقدت معظم مؤلفاتهم ، ويؤسفنا أن نضع مؤلفات هؤلاء الإخباريين فإن جهدهم لم يذهب غيلاً ، وقد أمدت أمثال المدائني والهيثم وهشام وأبي مخنف وابن إسحاق وسائر مؤرخي الطليعة خدمة للأدب العربي والتاريخ

الإسلامى بما جمعوا من أخبار الحوادث الهامة والروايات الطريفة .
 ومهدوا السبيل لظهور كبار المؤرخين الإسلاميين أمثال الطبرى واليعقوبى
 والمسعودى ومسكويه وابن خلدون وغيرهم من المؤرخين البارزين الذين
 افادوا من المادة الضخمة الدسمة التى جمعوها هؤلاء الرواد والتراث القيم
 الذى خلفوه . بعد أن أمضوا فى جمعه بياض نهارهم وسواد ليلهم .
 وتدل أكثر القرائن على أن التاريخ الإسلامى نشأ نشأة مستقلة غير
 متأثرة بما كتبه أعلام المؤرخين اليونانيين أو الرومانيين ، فلم يعرف العرب
 أمثال هيرودوت وتوكوتيدس وزيتوفون عند اليونان ، أو تيتوس ليفيوس
 وتاسيتوس عند الرومان ، وكانت نشأته استجابة لمطالب العالم الإسلامى
 وحاجاته وتطوراتهِ .

ومن المزايا التى اشتهر بها مؤرخو الإسلام مراعاة الدقة فى تسجيل
 الحوادث وتأريخها بالسنة والشهر واليوم ، وينقل المستشرق مارجليوث فى
 كتابه عن مؤرخى العرب عن المؤرخ البريطانى بـيـكـل قوله : « إن التوقيت
 على هذا النحو لم يعرف فى أوربا قبل عام ١٥٩٧ ميلادية » . وقد ابتداء
 التاريخ بالهجرة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلفاء الراشدين .
 والخصلة الثانية التى امتاز بها التاريخ الإسلامى هى الإسناد ، وهو
 إرجاع الرواية التاريخية إلى شخص شاهد عيان ، وفى سبيل تحري صيغة
 الأحاديث المنسوبة إلى النبى ﷺ ، نشأ نوع من التحقيق يقوم على

فحص سلسلة الإسناد وتتبع كيف وصل الحديث إلى كل جيل من الأجيال المتوالية . وكان دارسو الحديث في بادئ الأمر هم المؤرخين . ولكن التاريخ استقل بالتدريج عن علم الحديث . وصار الإخبارى شخصاً غير المحدث .

ولم تقو حركة كتابة التاريخ الإسلامى وتنشط إلا في أواخر عهد الدولة الأموية . ولعل السبب في هذا التأخير هو قوة ذاكرة العرب واعتمادهم الشديد على هذه الذاكرة الواعية القوية . يضاف إلى ذلك اعتبار آخر أشار إليه مار جليوث ، وربما كانت له أهميته . وذلك أن الحرص على معرفة السنة كان من شأنه أن يعلى مكانة الحفاظ ويجعل الحاجة إليهم ماسة . ووظيفة الحفاظ هي أن يكون عنده معرفة دقيقة شاملة واسعة للحوادث التي يرويها . وهذه المكانة التي بلغها الحفاظ كان مما يضعفها إمكان الحصول على هذه المعرفة بتفصيلاتها من الكتب . وقد تعبت الحفاظ في تحصيلها والثبت من صحتها . وكان يهم هؤلاء الحفاظ أن يظلوا مرجعاً للتخصيل وأوعية للعلم . على أن المادة التي بدأت تكتب في عهد العباسيين لم تؤثر في مكانة الحفاظ . وأكثر مؤلفي الكتب أنفسهم يكتفون من هذه الطبقة . وأرجح أن سبب اضطرابهم إلى الكتابة والتدوين على نطاق واسع هو تكاثر المعلومات التاريخية إلى حد جعل للذاكرات شحاً . الذاكرات القوية منها تنوء تحت أعبائها ، وقد أوجد

الحفاظ حلاً وسطاً ، وهو طريقة الإجازة . وهي أن يقرأ القارئ الكتاب ويدرسه على المؤلف نفسه أو من تكون له الأهلية والاستعداد لذلك . وفي عصر المؤرخ الكبير الطبري كان الناس يسمعون منه التاريخ والتفسير . وكان العلم المستمد من الكتب وحدها ينتقص ويطعن في قيمته ، ويفضل عليه العلم المنقول بالسمع . فهناك إذن أسباب أبطأت بحركة الكتابة والتدوين . إبرزها أن وظيفة الحافظ جعلت الكتب لا لزوم لها ، ثم الاعتقاد بأن الكتب المكتوبة قد تكون وثائق لا يعتمد عليها ولا يوثق بها لأنها قابلة للتزويد والتريف .

وتغير هذا النوع من التفكير مع الزمن ، وقد استلزم تفسير القرآن ضرورياً من المعرفة ربما كان في طبيعتها المعرفة التاريخية ، فالقرآن يشير إلى بعض الحوادث المعاصرة لنزوله . ومن ثم نشأت الحاجة إلى معرفة مناسبات نزول الآيات ، والنصوص القرآنية تتناول الحوادث في صورة موجزة ، ونكتي بالإيجاز عن الإسهاب والإطناب والتفصيل لتستنبط الحكم والقاعدة أو تستخرج العبرة والموعظة ، والذين نزلت فيهم الآيات كانوا يعرفون تفصيلات الظروف الموجبة لنزولها ، ويعرفون المناسبات والملايسات ، ومن ثم احتاج المفسرون إلى تاريخ وإلى دراسة الظروف التي نشأ فيها الإسلام ليحسنوا قراءة القرآن ويجيدوا فهمه . وفي القرآن إشارات تاريخية ولمحات عن الأمم السالفة ومواقف الأنبياء المتقدمين ،

والذى يريد أن يتفقه فى الدين ويستمكن من العلم يحرص على الرجوع إلى كتب المسيحيين واليهود لترداد معلوماته وتوسع آفاق معرفته ، ولم يكن الرجوع إلى تلك الكتب محرماً أو ممنوعاً . ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن يشجع عليه . ومن ناحية أخرى كان اليهود والمسيحيون الذين دخلوا فى الإسلام يميلون إلى الانتفاع بما فى ذاكراتهم عن الحوادث التى أشار إليها القرآن الكريم إشارات سريعة لينفذوا إلى الجوهر واللباب ، وقد اقتضى ذلك التوسع فى معرفة التاريخ والاستكثار من أخبار الأنبياء المتقدمين والأهم الوارد ذكرها فى القرآن .

ومن أسباب التوسع فى التاريخ كذلك رغبة بعض الخلفاء فى استماع أخبار الملوك السابقين ليتفخعوا بتجاربهم ، ويتعرفوا سياستهم ، فقد ذكر المسعودى أن معاوية كان يستمع كل ليلة إلى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها وسياستها لرعيها ، وسير ملوك الأمم وجروبها ومكايدها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، وكذلك كان الخليفة المنصور يحرص على معرفة التاريخ للاستفادة من تجارب الماضين واستخلاص العبرة من سياستهم .

... وحاجة النظام القضائى جعلت معرفة التاريخ ضرورة لازمة ، وذلك لأن نشوء السنة كان يستدعى معرفة الأعمال الداعية لذلك ، وقد كانت دراسة الأحاديث بما ساعد على نشوء فن التراجم وعلم الجغرافيا ، وذلك

لأن اختيار الأحاديث الصحيحة كان يدعو إلى معرفة حياة رواة الحديث وأخلاقهم وسجاياهم وعقليتهم وسلامة تمييزهم والبيئة التي عاشوا فيها وتلقوا العلم بها .

ويقول الأستاذ روبرت فلنت وهو يتحدث عن كتابة التاريخ عند العرب في كتابه عن تاريخ فلسفة التاريخ « (١) لم تكن كتابة التاريخ عند العرب خالية من المزايا الواضحة ، ولكنها لم تصل قط إلى المرحلة العالمية أو الفلسفية ، وأكثر الذين عالجوا كتابة التاريخ لم يتجاوزوا مرحلة الوصف والسرد الحولى ، والمرجح أن ابن الأثير (١١٦٠ - ١٢٣٢ ميلادية) مؤلف كتاب التاريخ العام يمكن أن يستثنى من ذلك ، وهو أقرب ما يكون إلى تلك المرحلة ، فهو لم يكتف بسرد الأحداث في نظام حدوثها ، وإنما حاول كذلك أن يكشف سوابقها الطبيعية . ونتائجها ويظهرها ، ولكنه لا يذهب إلى أبعد من ذلك ، فهو لم يحاول أن ينفذ ببصره إلى تطور الأفكار العامة التي تفسر التاريخ ويتعرف أثر أسباب التغيرات الاجتماعية الأعمق الذى تظهر الأسباب الظاهرة المباشرة نتيجة له أو تحدث بسببه ، وأما من ناحية علم التاريخ أو فلسفته فإن الأدب العربى قد ازدان باسم شديد المعان ، فلا فى العصر المدرسى ولا فى عالم العصر الوسيط المسيحى يبرز من له مثل المعان ، وإذا عدونا إلى خلدون

(١) ص ٨٦ من كتاب تاريخ فلسفة التاريخ

(١٣٣٢ - ١٤٠٦) مجرد مؤرخ فإن بين مؤلفي التاريخ عند العرب من يفوقه ، ولكنه بوصفه صاحب نظرية في التاريخ ليس له نظير في أى عصر أو أى صقع حتى ظهور فيكو بعد أكثر من ثلثائة سنة ، وأفلاطون وأرسطو وأغسطين ليسوا نظراء له . وجميع الآخرين ليسوا جديرين حتى يذكر أسمائهم مع اسمه ، وهو جدير بالإعجاب لأصالته وفطنته وعمقه وسعة إحاطته في فلسفة التاريخ كما كان دانتى في الشعر وروجر بيكون بين العلماء ،، وحقيقة أن مؤرخى العرب جمعوا المواد التى استطاع أن يفيد منها . ولكنه هو وحده الذى عرف كيف ينتفع بها » وعقد بعد ذلك فصلاً قيماً في كتابه لتحليل آراء ابن خلدون وتقدير فلسفته التاريخية .

ويستهل الأستاذ في بارنز حديثه عن المؤرخين المسلمين في العصر الوسيط بقوله : « من نواجع كثير لم تكن أكثر الحضارات تقدماً في العصر الوسيط الثقافية المسيحية بحال من الأحوال ، وإنما كانت حضارة الأقاليم الذين يدينون بدين الإسلام ، ويكذلك كان بعض أقدر مؤرخى العصر الوسيط من المسلمين . وأعظمهم ابن خلدون وهو يفوق بمراحل أى مؤرخ مسيحي في العصر الوسيط في تفهمه لمبادئ التقدم الإنسانى والثقافى ، حتى ظهور فولتير في القرن الثامن عشر لم يكن مؤرخ مسيحي يساميه في

هذا الاعتبار ، والمؤرخون المسلمون في مجموعهم إذا قارناهم بالمؤرخين المسيحيين فإنهم يمتازون باستقلال الرأي والتزاهة النسبية كما كانوا خيراً منهم في استعمال التسلسل التقويمي . وكان تاريخهم للمواد والأحداث أدق بكثير من الكتاب المسيحيين .

مراجع البحث

- (1) The Interpretation of History. By Max Nordau.
- (2) Introduction To the History of History.
By I.J. shatwell.
- (3) A History Of Historecal Writing.
By Harret Elmer Barnes.
- (4) Why we Read History. By K.B. smellie.
- (5) The Ancient Greek History. By K.B. Bury.
- (6) The Ancien1 Greek Literature. By C.M. Boura .
- (7) History of the Philosophy of History. By Robert Flint.
- (8) History By V. Gordon Childe.

مراجع عربية

- (١) بعض مؤرخى الإسلام - تأليف على أدهم
- (٢) التاريخ والمؤرخون العرب - تأليف الدكتور السيد عبد المنعم سالم
- (٣) علم التاريخ عند العرب - تأليف محمد عبد الغنى حسن
- (٤) علم التاريخ عند المسلمين - تأليف فرانز روزنتال وترجمة الدكتور صالح أحمد العلى
- (٥) دائرة معارف الشعب - عدد ٧٣ سنة ١٩٦٠
- (٦) الإعداد بالتوبيخ لمن ذم التاريخ تأليف السخاوى
- (٧) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان
- (٨) ضحى الإسلام (الجزء الثانى) تأليف أحمد أمين

صدر من هذه السلسلة :

- | | |
|-------------------------------|---------------------|
| ١ - طعام القم والروح والعقل | توفيق الحكيم |
| ٢ - القضاء ومستقبل الإنسان | فاروق الباز |
| ٣ - شريعة الله وشريعة الإنسان | المستشار على منصور |
| ٤ - أسس التفكير العلمي | د. زكي نجيب محمود |
| ٥ - عالم الحيوان | د. محمد رشاد الطويل |

الكتاب القادم :

الفلسفة ومبادئ التاريخي : د. توفيق الطويل ..

رقم الإيداع	١٩٧٧/٤٤٢٣
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٢٤٦-٩٨٩-٨

١/٧٧/٤٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. ٠ م. ع. ٠)

كتاب

هذا الكتاب

يلقي الباحث الأضواء على أصول الكتابة التاريخية ، عبر العصور الموعلة في القدم ، ويسير معها في طريق تدوينها عند اليونان والرومان ، وينتهي بها إلى تدوين التاريخ في العهد الإسلامي ، وفي كل مرحلة من المراحل بضيء الباحث موضوعه ، ويتقصى كل العالم الذي يدعم كل قضا والبراهين .

stx.
7.2
234



0410478